حصار القسطنطينية وصراع القوى في المشرق الإسلامي

(١٣٩٣-١٣٩٩م/ ٧٩٥ - ٨٠٢هـ)

أ. د/ ياسر مصطفى عبد الوهاب [١]

الباحث / محمد صبحي غازي الصعيدي

المستخلص:

شهد التاريخ الوسيط خلال النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادي / الثامن الهجرى أحداثا مهمة ، أسفرت فى نهايتها عن حدوث تغيرات سياسية عديدة ، بعد أن تأثرت موازين القوى الدولية وأنماط التفاعلات فى الشرق والغرب بالهجمة المغولية الثانية ، والتى تزامنت مع وصول المماليك للحكم في مصر وبلاد الشام ، بالإضافة إلى اكتمال قوة العثمانيين ، بعد أن أصبحوا قوة نشطة وفاعلة، ليصبحوا إلى جانب المماليك الفاعل الإسلامى الثانى على الساحة الدولية ، وهو ما تزامن كذلك مع اقتراب نهاية الدولة البيزنطية التى استمر ثقلها السياسى والحضارى حاضراً بقوة طوال ما يقرب من عشرة قرون من الزمان، ومع ازدياد الخطر المغولي ، ظهرت فكرة التحالفات الثنائية بين القوى الموجودة بل وأشتد الصراع السياسي والعسكري بينهما في تلك الفترة أيضا، وكان لحصار مدينة القسطنطينية من جانب السلطان العثماني بايزيد في عام ١٣٩٣م/ ٧٩٥ هـ حدثا هاما في تلك الفترة التاريخية ، بعد تداخلت وتشابكت الصراعات ، ولم يعد الأمر يقتصر على بيزنطة والعثمانيين فحسب، بل كان لهذا الحدث أثره على كل من المغول والمماليك في نفس الوقت.

[١] وكيل الدراسات العليا والبحوث- كلية الاداب- جامعة كفر الشيخ ، عضومجلس المؤرخين العرب.

Summary

During the Second half of the thirteenth Century AD/eighth AH, medieval history witnessed important events, which ultimately resulted in many political changes, after the international balance of power and the patterns of interactions in the East and West were affected by the second Mongol attack, which coincided with the Mamluks' arrival to rule in Egypt and other countries. The Levant, in addition to the completion of the power of the Ottomans, after they became an active and effective force, becoming alongside the Mamluks the second Islamic actor on the international scene, which also coincided with the approaching end of the Byzantine state, whose political and cultural weight remained strongly present throughout nearly ten centuries of time. As the Mongol threat increased, the idea of bilateral alliances between the existing powers appeared, and the political and military conflict between them intensified in that period as well. The siege of the city of Constantinople by the Ottoman Sultan Bayezid in the year 1393 AD / 795 AH was an important event in that historical period, after the conflicts overlapped and intertwined. The matter was no longer limited to Byzantium and the Ottomans only, but this event had an impact on both the Mongols and the Mamluks at the same time.

الكلمات الرئيسية:

القسطنطينية- بيزنطة- السلطان بايزيد- تيمورلنك

في أواخر عام ١٣٩٣ م/ ٧٩٥ هـ أراد السلطان العثماني بايزيد الاول Bayzid I (١٣٨٩-١٤٠٢م/ ٧٩١- ٨٠٥هـ) أن يُظهر سيطرته على الإمبراطورية البيزنطية وحكام البلقان، فاستدعاهم جميعاً للاجتماع به في مدينة سريس Serres - الواقعة على نهر ستريمون Strymon في الأراضي المقدونية- وبالفعل حضر الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني Manuel II[١] وأخيه ثيودور حاكم المورة، وكذلك ستيفان حاكم الصرب، وحنَّا السابع باليولوجوس، والعديد من الحكام ، وكان من الملاحظ أنه حضر هذا الاجتماع أفراد أسرة باليولوجوس بناءً على دعوة السلطان العثماني بايزيد، وكان هدفه من هذا الاجتماع هو التخلص من أفراد باليولوجوس وقتلهم جميعًا، ولكن من حُسن حظ هذه الأسرة، أن بايزيد لم يلبث أن غير رأيه، واكتفى بقطع أيدي وسَمْل عيونِ عدد من قادة الجيش البيزنطي، وقد أراد السلطان العثماني من خلاله أن يحقق عدة أهداف، ومنها: إظهار تبعية الإمبراطور البيزنطى مانويل له ، ومن ثم ممارسة النفوذ العثماني على بيزنطة، وأخيرا أراد أن يُظهر لهؤلاء الحضور الحقوق والواجبات الملزمين بها تجاه الدولة العثمانية [٢].

---

[١] ولد مانويل الثاني باليولوجوس Manuel II Palaeologus في القسطنطينية في السابع والعشرون من يوليو ١٣٥٠م، وهو الابن الثالث للإمبراطور يوحنا الخامس باليولوجوس، أصبح حاكماً على سالونيك منذ صيف عام ١٣٦٩م، وتوج كإمبراطور مشارك عام ١٣٧٣م، وخلف والده على العرش في فبراير ١٣٩١م وقد تزوج من هيلينا ابنة قسطنطين دراجاش Dragas في سنة ١٣٩٢م ، و توفى مانويل في القسطنطينية في عام ١٤٢٥م. لمزيد من التفاصيل انظر :

Barker,J.W.,*Manuel II Palaeologus*,PP.11-25;Dennis,G.,*The Reign of Manuel II Paleologos in Thessalonica,"1383-1387"*,OCA,Roma,1960,PP.11-55

راجع ايضا: دونالد نيكول: معجم التراجم البيزنطية، ص١٤٧-١٤٨.

[٢] George Phratzes,*Annales(1259-1477)*,ed.Immanuel Bekker,in C.S.H.B, (Bonne,1838),P.57; Gautier,P.,*Un Recit Indit Du Siege De Consantinole par Les Turcs1394-1402*,in R. E. B,Tom.XXXIII,Pairs,1965.P.107

من جانب أخر، ربما كان من نتاج هذا الاجتماع أيضا هو إنزال الرعب والفزع في قلوب من حضروه، بالإضافة إلى فرض بايزيد نفوذه على أفراد أسرة باليولوجوس الجالسة على العرش البيزنطي، وهذا ما جعل مانويل الثاني يبدأ في التفكير بالتخلص من تبعيته للسلطان العثماني على حد قول المؤرخ هامر Hammer(١)

في تلك الأثناء، وفي مطلع عام ١٣٩٤م / ٧٩٥ هـ وعقب فترة وجيزة من رحيل الإمبراطور مانويل من مدينة سريس أرسل إليه السلطان بايزيد يستدعيه للحضور إلى بلاطه للقيام بواجبه كتابع، فاجأ مانويل السلطانَ برفضه للدعوة، بل وعندما طلب منه بايزيد تحويل أحد الكنائس في القسطنطينية إلى مسجد وتعيين قاضٍ عثمانيٍّ، رفض مانويل تنفيذ مطالبه(٢) ،وعندئذٍ اعتبر السلطانُ بايزيد مانويل بمثابة تابعٍ متمردٍ على سيده، بل وقرر وضع نهاية للإمبراطورية البيزنطية التي أصبحت شبه واقعة وسط النفوذ العثماني في المنطقة.(٣)

في مارس ١٣٩٤م/ ٧٩٦ هـ بدأ السلطان العثماني في تنفيذ مخططه تجاه بيزنطة، فأرسل جيشاً تجاوز

=

Bre'hier, L., *the Life and Death OF Byzantium,*Trens,Lated by Margaret Vaughen,New York,Oxford,1977,P.330.

(١) Hammer,V., *Histoire De L'Empire Ottoman* ,Tr .by. J. Hellert, Tom.I, Paris, 1841–1853.,Tom.I,P.341

(٢) Jonathan Harris, *The Lost World of Byzantium*, Yale Univrsty Prees New Haven and London,p,2015,p.238.

(٣) Preas, E.*,The Destruction of the Creek Empire and the Story of Capture of Constantinopleby the Turks*,NewYork,1968,P.136;Browning,R., *The Byzantine Empire*, New York,1980.P.175.

العشرة آلاف رجل تحت قيادة وزيره على باشا [١] لفرض الحصار على مدينة القسطنطينية، وبدأت القوات العثمانية في مهاجمة ضواحيها ونهبها، مما اضطر السكان إلي الفرار من تلك المناطق. [٢]

---

[١]باشا:Pasha مشتقة من "بادشاه وهي كلمة أصلها فارسي، و يقال أنها "باشك" ،وهو لقب منحه العثمانيون لأصحاب المناصب العالية من المدنيين والعسكريين، وظلت كذلك حتي إلغاء فرقة الإنكشارية، فبدأ استبدالها بلقب جنرال بدلا عن لقب باشا لرجال الجيش. وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي أعيد منح هذا اللقب لمن علت مراتبهم من رجال الدولة العثمانية كالوزراع، وغيرهم ، للمزيد انظر:

حسين مجيب المصري :معجم الدولة العثمانية،الدار الثقافية للنشر ، القاهرة ٢٠٠٤مص٢٨.

ويعد علي باشا الجاندرلي –والذي لقب بالصدر الأعظم– الوحيد طيلة حياة السلطان بايزيد الأول احتفظ به وزيرا كما كان في عهد والده السلطان مراد، حيث استمر في منصبه ما يقرب من تسعة عشر عامًا، بداية من عام ١٣٨٧م/٧٨٩هـ إلى وفاته ١٤٠٦م/٨٠٩هـ وينتمي علي باشا إلي أسرة جندرلي، وهي من الأسر العريقة، وقد تولي منصب الصدر الأعظم بعد والده خليل باشا الجاندرلي، ومنحه السلطان بايزيد خاتم توقيعه، ولعب علي باشا دورًا كبيرًا في بناء الإدارة المركزية بعد أن أنشأ منصب قاضي عسكر ومنصب شيخ الإسلام، كما كان له دورٌ كبير في تكوين قوات الإنكشارية ، انظر:

روبير مانتران: تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة بشير السباعي، ج١، ط١، دار الفكر للنشر والتوزيع، القاهرة،١٩٩٣م، ص ٦٠؛ هاملتون جب وهارولد باون: المجتمع الإسلامي والغرب، ترجمة أحمد إيبش، جـ١، ط١، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي،٢٠١٢م، ص ١٦١

[٢] Doukas,M., *Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks,*Tr. From"Historia Turco Byzantion "by Harrry J. Magoulias,Wayne State University,1975,P.83

كانت هناك مبالغة واضحة من جانب الرحالة الأسباني كلافيجو Clavigo عندما ذكر أن بايزيد حاصر القسطنطينية بأربعمائة آلاف رجل ، انظر:

Clavijo,C.,*Emmbassy to Tamerlan,1403-1406*,tr,from the Spanish by Guy Lestrang, (London,1928),,P.89

في الوقت نفسه، قرر السلطان بايزيد بناء قلعة على الجانب الأسيوي للبوسفور على بعد ستة أميال من القسطنطينية، وهي قلعة أناضولي حصار Anadolu Hisar [١]، وفي إبريل ١٣٩٤م/ ٧٩٦هـ أقدم بايزيد على خطوةٍ أكثر خطورةٍ تجاة العاصمة الإمبراطورية، وهي: منع أيَّة إمدادات تصل إلى القسطنطينية من هذه الأماكن، وحرمان سكانها من المنتجات الزراعية القادمة من تلك الأماكن[٢]، كما وضع بايزيد كل الأماكن التي استولى عليها العثمانيون من قبل في بلاد اليونان تحت سيطرته المباشرة مثل مدينة سالونيك، وبعض أجزاء ومدن شبه جزيرة البيلبونيز وتساليا Thessaly[٣] ، ويؤكد المؤرخ جوتيير Gautier في دراسته عن حصار القسطنطينية هذا بالقول: "أن السلطان بايزيد كان يهدف من تلك الهجمات العسكرية فصل مدينة القسطنطينية عن الأماكن التي كانت تتلقى منها المؤن؛ ولهذا فإن سكانها كان عليهم آنذاك الاعتماد على دخل المدينة نفسها" .[٤] من جانب أخر ينفرد الرحالة الإسباني كلافيجو Clavigo بالقول بأن السلطان بايزيد لم يكتفِ بالحصار البري

---

(١) أطلق على قلعة أناضولي حصار اسم " كزل حصار"Guzeldje Hyssarr" أي القلعة الجميلة، وتعني أيضا شديدة البياض، وقد بناها السلطان العثماني بايزيد على الضفة الأسيوية من مضيق البوسفور؛ استعدادًا لفتح القسطنطينية، والقضاء على بيزنطة . انظر:

أحمد فؤاد متولي &هويدا محمد فهمي: تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي، ط١، انتراك للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص٧٩.

(٢) Doukas,M.,*Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks*,P.83 .

(٣) إقليم تساليا Thessaly يقع في منتصف بلاد اليونان جنوب مقدونيا وشمال هيلاس Hellas يفصل بينها وبين إمارة إبيروس جبال بيندوس Pindus، وتعتبر لاريسا Larrisa من أهم مدنها..انظر:

إسحق عبيد: الدولة البيزنطية في عصر باليولوغوس (١٢٦١-١٢٨٢م)،مطبعة دار الكتب،بيروت، د.ت، ص ١٥- ٨٥.

(٤) Gautier,P., *Un Recit Indit Du Siege De Consantinole par Les Turcs 1394-1402,*Revue Des Etudes Byzantines,Tom.XXXIII,Pairs,1965,p.105;Vasiliev,A., *Histoire De L'Empire Byzantine,1081-1453,*Tom.II, Paris,1932.,Tom.II,P.316.

للقسطنطينية، بل فرض عليها أيضا حصاراً بحرياً بحوالي ستين سفينة حربية [١]، كما يشير سرهنك وجوتيير Gautier " أن العثمانيين استخدموا آلات عديدة في حصارهم للقسطنطينية" [٢]، وخاصة المجانيق[٣] .

كان من الملاحظ أنه حتى تلك المرحلة من حصار القسطنطينية، أنه لم يكن هناك قتال عسكري بالمعني المفهوم بين الطرفين البيزنطي والعثماني، وهذا ما أكده المؤرخ ميخائيل دوكاسMicael Doukas بقوله: " لم يفعل الطاغيةُ؛ بايزيد أيةَ حربٍ حقيقية ضد المدينة، فلم يفرض حصارًا بآلاتٍ لإبادةِ شُرفاتِ حُصونها وأسوارها، وخلافاً لذلك لم يقم بأي نوعٍ من الأعمال العسكرية، كما أنه لم يصدر الأوامر إلى قواته للقيام بأي مناوشات، ولكنه بدلاً من ذلك نشرها حول المدينة لحراستها حتى لا يستطيع أي شيء دخولها أو الخروج منها".[٤] بينما عبر المؤرخ ابن عربشاه عن هذا الوضع قائلاً: "ابن عثمان كان بالحصار قد أنهكها، وأباد قُراها

---

(١) Clavigo,*Embassy to Tamerlane*,P.89.

(٢) إسماعيل سرهنك: حقائق الأخبار عن دول البحار، جـ١، طـ١، المطبعة الأميرية، القاهرة،١٣١٢هـ ، ص٤٩٥.

Gautier,P.,Un Recit Indit Du Siege De Consantinole,p.107

(٣) المنجنيق: عبارة عن أربع دعامات خشبية عمودية، مثبت بها ثمانية قطع من الخشب، أربع منها أعلي وأربع في القاهرة، وكان المنجنيق يغطي بالجلد حتى يظل خفيفا، وفي سقفه من الداخل كانت تعلق دعامة خشبية كبيرة بواسطة سلاسل، وهذة الدعامة كانت توضع في منتصف المنجنيق، وكان طرق هذه الدعامة الخشبية مدببا، ومغطي برأس من الحديد ويجعل المنجنيق على أربع عجلات، وعند استخدامه لهدم أحد الأسوار كان يتم سحب الدعامة الخشبية إلى الخلف ثم تركها إلى الأمام في إتجاه الأسوار.انظر:

جوزيف داهموس: سبع معارك فاصلة في العصور الوسطي، ترجمة محمد فتحي الشاعر، طـ٢، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة،١٩٨٩م، ص٣٥.

(٤) Doukas,M.,*Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks*,P.83;

Chalcocondyles,L., *Historiarm ,* Translation and Commentary of the"Demonstration of Histories (Book I–III)", ed.By. Nicoloas Nicoloudis, Athens,1996,PP.209–211;CF.also:Gautier,P.,*Un Recit Indit Du Siege De Consantinole*,P.106;Necipoglu,N.,

وضواحيها وأهلكها، وضيق على أهلها في مجاري أرواحهم مسلكها"[١]. وبالفعل ومع مرور الوقت عانى سكان القسطنطينية كثيرًا على الرغم من محاولات التجار الجنوية من إدخال شحنات من الحبوب لسد حاجة سكان العاصمة الإمبراطورية [٢] .

وفي حقيقة الأمر، كان الإمبراطور مانويل الثاني يواجة العديد من الصعوبات أثناء هذا الحصار، منها: عدم توافر القوة الحربية والاقتصادية اللازمة للدفاع عن القسطنطينية ضد العثمانيين[٣]، ومن ثم قام بمراسلة البابا بونيفاس التاسع Boniface IX (١٣٨٩-١٤٠٤م)[٤]، وشارل السادس Charles VI ملك فرنسا (١٣٨٠-١٤٢٢م) [٥]، وسيجسموند Sigismund ملك المجر، يخبرهم بالحصار العثماني والوضع السيء داخل المدينة،

=

Byzantium Between the Ottoman and the Latins, Cambridge, 2009,P.149.

[١]ابن عربشاه: عجائب المقدور في نوائب تيمور، تحقيق أحمد فايز الحمصي، ط١، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت،١٩٨٦م،ص٣٣٣.

[٢] تشير الدراسات الحديثة أن تلك المساعدات كانت من جانب تجار جنوة ولم تكن بشكل رسمي من السلطات الجنوية، وأن الأخيرة رفضت ذلك الأمر بل وأصدرت أوامرها بمنع تهريب تلك الشحنات لسكان القسطنطينية، خوفا من غضب السلطان العثماني، انظر:

Vasiliev,A.,*Histoire De L'Empire Byzantine*,Tom.II,P.317

[٣] Jonathan Harris, *Constantinople Capital of Byzantium*, London,p,2017,p.188

[٤] البابا بونيفاس التاسع Bonifaci IX (١٣٥٦-١٤٠٤م): هو البابا المائتين وواحد للكنيسة الكاثوليكية ، تولى البابوية من ٢ نوفمبر ١٣٨٩م حتى وفاته في أكتوبر ١٤٠٤م. انظر:

Richard,P.,Mcbrien, *the Pocket Guide to the Popes*, Harper one, 2006, P.231.

[٥] شارل السادس Charles VI (١٣٦٨-١٤٢٢م) هو ابن الملك الفرنسي شارل الخامس من زوجته جاندو بوربون، وهو رابع ملك من عائلة فالو من سلال كابيه، ولقب شارل بالمجنون Le Fou انظر:

Rosser,J., *Historical Dictionary of Byzantium*,USA,2001, P.76.

محذرًا أنه في حالة عدم قدوم مساعدات على وجه السرعة إلى القسطنطينية فإنها سوف تستسلم للسلطان العثماني. [١]

وبناء على ذلك تحرك حكام الغرب الأوربي لإنقاذ بيزنطة قبيل السقوط ، ففي عام ١٣٩٥م / ٧٩٧هـ أصدرت البابوية عدة مراسيم للتبشير والدعوة لشن حملة صليبية تنقذ القسطنطينية، وتتصدى للعثمانين، وتم الصلح ما بين ريتشارد الثانى Richard II ملك انجلترا(١٣٧٧-١٣٩٩م) [٢]، والملك الفرنسي شارل السادس

(١) Doukas,M.,Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks,P.83.

(٢)- ريتشارد الثاني (٦ يناير ١٣٦٧ - ١٤ فبراير ١٤٠٠) ثامن ملوك إنجلترا من أسرة بلانتا جانت، استمرت فترة حكمه من عام ١٣٧٧ حتي الإطاحة به في عام ١٣٩٩. كان ريتشارد ابن الأمير إدوارد، الأمير الأسود، حيث ولد في عهد جده إدوارد الثالث ملك إنجلترا. وفي الرابعة من عمره ، أصبح ترتيب ريتشارد ثانيًا في ولاية العهد بعد وفاة شقيقه الأكبر إدوارد أنغولم، ثم وليًا للعهد بعد وفاة والده في عام ١٣٧٦. ومع وفاة إدوارد الثالث في العام التالي اعتلى ريتشارد العرش في سن العاشرة، خلال السنوات الأولى في مُلك ريتشارد كان الحكم في يد سلسلة من المجالس حتى لايسيطر "جوندو قلانكستر" عم الملك والوصي على العرش على الأمر بمفرده. كانت ثورة الفلاحين عام ١٣٨١هي أول التحديات الرئيسة في عهده، والتي تعامل معها الملك الشاب بشكل جيد، ولعب دورًا رئيسًا في قمع التمرد. وفي السنوات التالية تسبب اعتماد الملك على عدد صغير من رجال البلاط في استياء المجتمع السياسي. وفي عام ١٣٨٧، سيطر على الحكومة مجموعة من النبلاء وهو ماعرف باسم مجلس اللوردات. وفي عام ١٣٨٩ استعاد ريتشارد السيطرة، وعلى مدى السنوات الثماني التالية حكم إنجلترا بدون أن يَدخلَ في صراعاتٍ مع خصومه السابقين. ثم في عام ١٣٩٧، بدأ انتقام ريتشارد من اللوردات، فأعدم أو نفى كثيرًا منهم. وقد وصف المؤرخون العامين التاليين بأنهما سنتي "طغيان" ريتشارد. في عام ١٣٩٩، وبعد وفاة عمه "جوندو قلانكستر" جرّد ابن عمه "هنري بولينجبروك" من أملاكه والذي كان قد سبق نفيه، والذي غزا إنجلترا في يونيو ١٣٩٩ بقوة صغيرة ازداد عددها بسرعة. وعلى الرغم من أنه ادّعى في البداية أن هدفه فقط استعادة إرثه، إلا أنه سرعان ما أصبح واضحًا أنه ينوي المطالبة بالعرش لنفسه. وبعد مقاومة لا تذكر، خلع "بولينجبروك" ريتشارد، ونصّب نفسه ملِكًا تحت اسم "هنري الرابع". توفي ريتشارد في الأَسْر في بداية العام التالي، ويرجّح أنه قُتل . أنظر:

[١].و لعب دوق برجندى فيليب الطيب Philippe le Bon(١٤١٩-١٤٦٧م) [٢] دورًا هامًا فى الإعداد للحملة المرتقبة[٣]. كما تحدد ٢٠ أبريل عام ١٣٩٦م/ ٧٩٨هـ، كموعد لالتقاء الجيش الفرنسى فى ديجون Doigon- عاصمة إقليم برجندى فى شرق فرنسا- ، حيث يتم دفع أجور أربعة أشهر لهم بمعدل أربعين فرنك للفارس، وعشرين فرنك لحاملى الدروع ، واثنى عشر لرماةِ السهام[٤]

على أيه حال، قيل أن تلك القوات والتي تجمعت بهدف التصدي للعثمانيين، بلغت المائة ألف أو يزيد

=

Anthony Goodman & James L. *Gillespie,Richard II "The Art of Kingship*,(Oxford,1999),p.266

(١) Atiya,A,S , *The Crusade of Nicopolis* , (London 1934),pp, 29-31

(٢) فيليب الطيب Philippe le Bon : دوق برجندى ، ولد فى نفس عام اندحار الجيش الصليبى فى نيكوبوليس _ أى عام ١٣٩٦ _ وكان من أشد المتحمسين لقيادة حربٍ مقدسةٍ، لذلك أفصح أمام الجميع أكثر من مرة، خاصةً أنه كان يُعد من أغنى الحكام الأوروربيين فى تلك الفترة . انظر: موريس كين : حضارة أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة قاسم عبده قاسم، دارعين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية، القاهرة،٢٠١٥م، صـ ٢٤٨-٢٤٩

(٣) قام فيليب بفرض ضرائب إضافية، وذلك من خلال إصدار مرسوم قانون بذلك عام ١٣٩٤م ، ذلك بالإضافة للاقتراض والمعونات من نبلاء فرنسا الآخرين والدول المجاورة، والاقتراض أيضا من دوق ميلان ورجال الدين، فكانوا في حاجةٍ كبيرةٍ لجمع الأموال الضخمة من أجل هذا المشروع، وبالفعل استطاع دوق برجندى جمع مبلغٍ ضخمٍ يقدر بحوالى سبعمائه ألف فرنك ذهبى، كما ساهم أيضا جوى السادس كونت لاترمويل Guy VI de la Tremouille بأربعةٍ وعشرين ألف فرنك، انظر:

Froissart,j, *Chronicle of Froissart*,Trans by John Bouchier,Lord Berners edited by Macaulay,G.,London 1930,pp,436-445; Atiya,A,S., *The Crusade In Later Middle Age, London, 1938,* p, 438

(٤) Atiya,A,S , *The Crusade of Nicopolis* , pp,42-43

وهو الأمر الذي دفع سيجسموند ملك المجر للقول: " لماذا علينا أن نخاف من هذا الرجل – بايزيد– فلو سقطت السماء علينا فإننا نستطيع رفعها بحرابنا" [١] ، ثم توجهت تلك القوات نحو نيقوبوليسNicopolis وذلك في عام ١٣٩٦م/ ٧٩٨هـ [٢]، وعندما علم السلطان بايزيد بتلك الحملة، جمع قواته ورفع الحصار عن القسطنطينية حسبما ذكر المؤرخ ميخائيل دوكاس Michael Doukas ورأَسَ قواته إلى الدانوب، وكان فرسان الغرب في المقدمة لم ينتظروا أن يُعلموا سيجسموند بخططهم، فقد دفعهم الحماس الصادق بالغ الارتفاع على أن يهاجموا التل، وتشتت أمامهم الفرسان العثمانيون، وبينما كان العثمانيون يجمعون شملهم من جديد وراء المترجلين، أعاق فرسانَ الغرب عن الحركة أعمدةُ الحاجز في المدينة، فبادروا إلى الترجل عن أفراسهم، وواصلوا الهجوم على أقدامهم، فنزعوا الأعمدة من الأرض كلما تقدموا، وكان ذلك حافزاً على الهجوم حتى تشتت شمل العثمانيين، وعلى الرغم من أن العثمانيين استطاعوا أن ينسحبوا إلى ما وراء الخيالة الذين اجتمعوا من جديد، فإن عدداً كبيراً منهم تعرض للقتل أو تم قذفهم من السهل وعندما أسرع الصليبيون وبلغوا قمة التل، أضحَوا وجهاً لوجه مع فرسان بايزيد، ففاجأتهم هذه القوات النشطة وتحول انتصار الغرب إلى هزيمة، وغرق الكثير من القوات أثناء محاولتهم عبور الدانوب، ولم ينجُ من القتل إلا عددٌ قليلٌ من الفرسان، وأرسل بايزيد الأحياء إلى بورصة حيث احتُجِزوا

---

[١] صلاح عماد الدين صلاح الدين: الإمبراطور مانويل الثاني باليولوج (١٣٩١–١٤٢٥) والإسلام في ضوء كتاباته الأدبية ومحاوراته اللاهوتية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة المنصورة، ٢٠١٧م، ص٥٥.

[٢] نيقوبوليس Nicopolis: تعنى مدينة النصر Nico–Polis وتعرف حديثاً بنيقوبول Nikopol وبالتركية Nigheboli، وتعرف في المصادر المجرية نيقوبوليس الكبرى تمييزاً لها عن نيقوبوليس الصغرى، وهي تقع بالقرب من مصب نهر أوسما Osma مقابل وادي Aluta وتتحكم في اثنين من أفرع الدانوب الرئيسية اللذين يخترقان بلغاريا ووالاشيا. لمزيد من التفاصيل عن المدينة. انظر:

Atiya,A., *The Crusade In Later Middle Age*, P499; Idem, *The Crusade of Nicopolis,*London,1934,Appendix,VIII,PP.152–4,P.181. No.66.

وسُلِّموا فيما بعد مقابل مبالغ مالية كبيرة. (١)

وهكذا استطاع بايزيد أن يحقق انتصارًا ساحقاً في نيقوبوليس بسبب الانقسامات التي حدثت في صفوف قيادات الحملة، والتخطيط الجيد، وعدم معرفتهم بطريقة قتال القوات العثمانية، بل والأهم: الافتقار إلى الرؤية الواحدة الواضحة والأهداف المشتركة. (٢)

ما لبثت وأن بدأت نتائج معركة نيقوبوليس في الظهور، فوجدنا السلطان بايزيد يقرر على الفور العودة لحصار القسطنطينية من جديد(٣)، وفرض عليها حصاراً شديداً، كان الهدف منه إجبارها على التسليم وحتى ينتهي الأمر بسرعة في الاستيلاء عليها، قرر تدمير بعض المناطق التي كان يمكن أن تُرسلَ لها النجدات، ثم عاد إلى القوات المحاصرة للعاصمة البيزنطية. (٤) وأرسل تهديدًا للإمبراطور مانويل الثاني يطالبه بتسليم مدينة

---

(١) Doukas, M.,*Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks,*P.84-85.

راجع ايضا:حسين كوكتشة وأخرون: السلاطين الأوائل" عصر سلاطين الدولة العثمانية" ، ترجمة: سمير عباس، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠١٦م، ص١٢٤.

(٢) Doukas,M.,*Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks,*P.83-84.

(٣) تعد معركة نيقوبوليس Nicopolis واحدة من أقدم وأخطر الفصول في تاريخ المسألة الشرقية، والذي انتهي لصالح العثمانيين بعد قبولهم كدولة أوروبية جديدة على الرغم من اختلاف أصلهم ودينهم، وفي المقابل أصبحت المجر حصن الكاثوليكية لوقف الزحف التركي نحو قلب أوروبا، ليس هذا فقط بل كانت هذه المعركة هي أخر الحروب الصليبية لحركةٍ منظمة تستهدف استعادة الأراضي المقدسة، إذ أصبحت تلك الحركة بعد ذلك منحصرة في الدفاع عن أوروبا المسيحية أمام الإسلام المتمثل في العثمانيين. انظر:

Kelly Devries, *The Lack of a Western European Military Response to the ottoman Invasions of Eastern Europe from Nicopolis (1396) to Mohács (1526),* J.M.H, Vol.63, No.3 (Jul.,1999), PP.539-559, P.539

(٤) Cheyney,E., *The Dawn of A New Era*,U.S.A.,1936,p.232;Vasiliev,A.,*Histoire De*

القسطنطينية له، وتوعده بالقضاء عليه وعلى شعبه إذا رفض هذا الأمر، ورغم ما تَحْمِلُ هذه الرسالة من تهديدٍ واضح للإمبراطور مانويل بالقضاء عليه وعلى شعبه، إذ رفض تسليم مدينة القسطنطينية للسلطان العثماني [١].

على أيةِ حالٍ، لم ينفذ السلطان بايزيد تهديده لمانويل الثاني، وقد قيل أن سببَ ذلك نصيحةُ وزيره علي باشا الذي أخبره أن الاستيلاء على القسطنطينية قد يجلب عليه الغرب الأوروبي من جديد [٢]، بينما يرى البعض أن السببَ كان تفضيل بايزيد أنشطته الحربية في آسيا الصغرى، كما أنه عَرف عن طريق جواسيسه الموجودين في القسطنطينية أن سكانها يرغبون في التسليم، وأن هناك احتمالًا أن يجبروا مانويل على التسليم إذا قام بشن هجوم ضخم على المدينة، ولكن بايزيد لم يقم بهذا؛ لأنه كان يدرك تماماً أنه لن يتمكن من الاستيلاء عليها من الناحية البحرية، والتمكن من قطع طرق مواصلاتها بحراً [٣]، كما أن العثمانيين لم يمتلكوا وقتئذٍ المدفعيةَ الثقيلةَ التي تمكنهم من مهاجمةِ أسوارِ القسطنطينية القوية.[٤] ومن ثَم اكتفى السلطان بايزيد بأنْ فرض على مانويل

=

L'Empire Byzantine, Tom.II,P.318;Greasy,E., *History of the Ottoman Turks,*Beriut,1968,P.43.

(١) Doukas,M.,*Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman* Turks,P.85.

يفسر المؤرخ إدوارد جيبون Edward Gibbons أن السبب وراء رفض مانويل تسليم المدينة يرجع إلي أن الإمبراطور مانويل قد وصل إليه آنذاك ستمائة فارس وهدية من النقود من فرنسا، انظر:

Gibbons,H., *The Foundation of the Ottoman Empire*,P.232.

(٢) Hearsy,J., *City of Constantines 324-1453,*Dufour Philadelphia,1966,P.230;.

(٣) عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق والغرب تجارية-ثقافية-صليبية، ترجمة فيليب صابر سيف، مراجعة أحمد خاكي، ط١، دار العلم العربي، القاهرة، ١٩٧٢م، ص١٣٦؛ ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، جـ٣، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨١م، ص٧٧١.

(٤) Clavigo,*Embassy to Tamerlane*,P.90.

هدنةً لمدة عشْر سنواتٍ، وذلك مقابل ثلاثين ألف دوكات ذهبية [١] تدفع سنوياً للعثمانيين، وأمهل الإمبراطور عدة أيام للرد.[٢]

مع مرور الوقت، زادت معاناة أهالي القسطنطينية، وبدأ انقسامُهم حول ما يحدث لهم، وتذمر أغلبيتُهم وأعلنوا على الملأ أنهم يفضلون تسليم المدينة للأتراك العثمانيين بدلاً من الموت جوعاً، كما أن تسليم المدينة سوف يُجنِّبُهم حالات النهبِ والسلبِ التي ستتْبَعُ نجاحَ العثمانيين في الإستيلاء على مدينتهم [٣]، بينما وجدنا فئةً أخرى من السكان لا يزال لديهم الأملُ في قدوم مساعدةٍ من الغرب الأوروبي لنجدتِهم، ومن ثَمَّ كان يُنادَى بالصمود والدفاع عن المدينة، بينما كان هناك فئةٌ ثالثة أدخلت نفسها في الغيبيات وما عرف بالتأملات الألفية عن تاريخ المجيء الثاني للمسيح عليه السلام، على حد قول المؤرخ براونيج Browning. [٤]

حدث وأن انتشر في شوارع القسطنطينية العديدُ من الأقاويل عن الأعمال الوحشية التي قام بها العثمانيون في حروبهم بآسيا الصغرى؛ مِن إبادة مدن، وتدمير المعابد المقدسة، وإجبار المسيحيين على التخلي عن عقيدتهم، وهو ما جعل سكان القسطنطينية يتفقون جميعًا عن التخلي تماماً عن فكرة تسليم المدينة للعثمانيين، وقالوا: " دعونا لا نكتئِب، فنضعُ آمالنا في الرب، ودعونا نتحلَى بالصبر لفترةٍ أطول، ومن يدري؟ ربما يتغاضَى

---

[١] دوكات: جمع دوكة وهي قطعة نقد ذهبية كانت متداولة في البندقية ضربت لأول مرة سنة ١٢٨٤م، وكانت بمثابة "دولار" القرن الخامس عشر. انظر: كات فليت: التجارة بين أوروبا والبلدان الإسلامية في ظل الدولة العثمانية، ص ٣٣٧.

[٢] Lavallée,T.,*Histoire De L'Empir Ottoman*,P.152

[٣] Doukas,M.,*Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks*,P.85.

[٤] كان هناك اعتقاد واسع أن المجيء الثاني على وشك الحدوث، وهذا التاريخ كان محددا بسنة ١٤٩٢م، الألف السابع منذ خلق العالم، طبقاً للتاريخ الروماني،انظر:

Robert Browning ,*The Byzantine Empire,The Catholic Univerity of America Press ,1992*,P.176.

الربُّ عن ذنوبنا، ويهبنا الرحمة، وينقذنا من هذا الشخص البغيض" [١].

انطلاقا من الموقف الجديد لأهالي القسطنطينية أدرك السلطانُ بايزيد أن الاستيلاءَ على المدينة لن يأتيَ بالقوة، فحاول استغلالَ الصراع القديم على العرش العثمانيِّ بين حنَّا السابع ابن أندرونيكوس الرابع باليولوجوس وبين عمه مانويل الثاني، وقرر إحياءَه من جديد، فأرسل لحنَّا السابع يعرضُ مساعدته في الحصول على حقوقه الوراثية في العرش البيزنطي، ورحب حنَّا على الفور بالعرض العثماني، بل ووعد بايزيد أنه سوف يتنازل له عن مدينة القسطنطينية بمجرد أنْ يصبحَ سيداً لها، بشرط أن يترك له السلطانُ المناطقَ التي كان يمتلكها البيزنطيون حتى وقتئذٍ في البيلوبونيز؛ للعيش فيها، فوافق السلطان على ذلك، كما وعده في حالةِ أخذِه القسطنطينية سوف يكون هناك حالة من السلام الدائم بين بيزنطة والعثمانيين .[٢]

على الفور بدأ بايزيد في تنفيذ مخططه، حيث طلب من الإمبراطور مانويل التنازلَ عن القسطنطينية إلى حنَّا السابع، قائلاً: "مانويل، اترك المدينة، اسمح بجلب يوحنَّا باعتباره الوريث الشرعي للإمبراطورية، وسأحافظ على حالةٍ من الهدوء والسلام الكاملين مع أهالي القسطنطينية"، وفي الوقت نفسه أرسل بايزيد إلى سكان المدينة يطالبهم بالوقوف بجانب حنَّا السابع ومساعدته في الوصول للعرش البيزنطي، وأن ذلك سوف يجعله يتراجع عن حصار المدينة، وحرَّض على الثورة للإطاحة بمانويل الثاني، كما أن السُوقة من عامة الشعب كانوا يتطلعون إلى تنحي مانويل عن العرش البيزنطي؛ لأن حكمه مستبدٌ، وأنه ليس مهتماً بإنقاذ القسطنطينية[٣] ولكن لم يتم الأمر

---

(١) Doukas,M.,*Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks,*P.85; CF.also:Nicol,D., *The Last Centuries*,P.320.

(٢) Doukas ,M.,*Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks*,P.86;CF.also:Alix,M., *Precis De L'Histoire De L'Empire Ottoman*,Tom.I,PP.26-27.

(٣) Doukas,M.,*Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks,*P.86;CF.also:Hammer, V.,*Histoire De L'Empire Ottoman,*Tom.I,P.342

في النهاية، بالإضافة إلي رفض مانويل تنفيذ أوامر تيمورلنك بترك الحكم، فأنه يبدو أيضا أن حنَّا السابع لم يَستجبْ في النهاية لمخطط السلطان العثماني، ووسط تشكك أهالي القسطنطينية لنوايا السلطان فشل مخطط بايزيد لإحياء الصراع القديم على العرش البيزنطي.

وسط زخَمِ الأحداث حول مدينة القسطنطينية، كان القائد المغولي تيمورلنك يواصل هجماته وفتوحاته العسكرية، فوجدناه يحاول أن يكتسحَ شمالَ غرب آسيا بشكلٍ سريعٍ ومباغتٍ قبل أن يتمَّ تفعيل التحالف العثماني المملوكي ضده، وبالفعل فإنه مع مستهل عام ١٣٩٤ م / ٧٩٦ هـ نجح فى إخضاع الأكراد، وقلعه تكريت وماردين[١] ، وتصادف انتشار الأخبار حول القبض على عدد من الجواسيس التابعين لتيمورلنك، واعترف زعيمُهم بأنه يوجد في القاهرة عددٌ من الجواسيس بغرض التجسس على القدرات العسكرية للماليك، لإخبار تيمورلنك بها، وذلك في ٢٨ يناير ١٣٩٤ /٢٥ ربيع أول ٧٩٦ هـ[٢] ، وتصادف أيضا أنْ وصلَ إلى القاهرة أحمد ابن أويس؛ حاكمُ بغداد فارًّا من بطش تيمورلنك ليُعِدَّ له السلطانُ برقوق استقبالاً حافلًا، وأعلن رسميًا أن ابن أويس في حماية المماليك[٣] .

إزاء التطورات الأخيرة، أعلن برقوق الحرب على تيمورلنك، وبالفعل نجحتِ القوات المملوكية في إلحاق الهزيمةِ بإحدى طلائع قوات تيمورلنك، وقَتْلِ العديد منهم وأسْرِ غيرهم، وذلك قرب الرَّها في ٢ فبراير ١٣٩٤ م /

---

[١] المقريزى: السلوك, ج ٣ , ص ٧٩٦– ٧٩٩؛ ابن الصيرفي: نزهة النفوس ,ج١ , ص٣٦٩ .

[٢] في تلك الفترة ، وحسبما تذكر المصادر العربية، حدث وأن تم القبض على أحد التتاريين في حلب، ويدعى دولات خجا، وأُرسل إلى القاهرة، وعندما عُرض على السلطان لم يعترف بشيء، ثم عاد واعترف بأنه يوجد عددٌ من الجواسيس التابعيين لتيمورلنك في القاهرة , حيث تم القبض على سبعة منهم، وكانوا جميعا من العجم فى زى تجار .انظر :

المقريزى: السلوك، ج ٣ ، ص٨٠٢؛ ابن حجر العسقلانى : إنباء الغمر ، ج ٣ ، ص ٢٤٤ ؛ابن الصيرفي: نزهة النفوس،ج١ ،ص٣٧٨

[٣] المقريزى: السلوك, ج ٣ , ص ٧٩٩ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور , ج١ق ٢, ص ٢٦١ . راجع ايضا:

أحمد عودات وأخرون : تاريخ المغول والمماليك، أربد١٩٩٠م، ١١٩.

٣٠ ربيع أول ٧٩٦ هـ [١] ، وعندئذ أظهر تيمورلنك غضبه فى رسالة أرسلها إلى برقوق في ٥ فبراير ١٣٩٤ م / ٣ ربيع آخر ٧٩٦ هـ ، وهي رسالة مليئة بالتهديد والانتقام ، موبخاً إياه على قتل رُسُلِه في الرحبة، مطالباً إياه بالدخول فى طاعته، وتسليم أحمد ابن أويس في أقرب وقت، مهددًا بقوله":" وأنتم إن أطعتُم أمرَنا، وقبلتم شرطنا، فلكم مالنا، وعليكم ما علينا، وإن خالفتم فلا تلوموا إلا أنفسكم" [٢] ليرد عليه برقوق برسالتين أقوى تعبيراً، وأشد تهديداً مُتهِمًا تيمورلنك وقومَه بالكُفر والإلحاد، رافضًا الدخول في طاعته، كذلك تسليمه ابن أويس، معلناً تحدِّيه، وأنه ذاهب لقتاله والقضاء عليه[٣] وبالفعل قاد برقوق الجيشَ المملوكيَّ متجهاً إلى بلاد الشام، ليصل إلى دمشق في أواخر فبراير ١٣٩٤ م/ جمادى الأول ٧٩٦ هـ [٤] ، ومنها إلى حلب، ثم جهز أحمد ابن أويس بقوات مملوكية نجح بفضلها فى استعادة بغداد، بعد أن ألحق هزيمةً بالحامِيةِ المغولية التى تركها تيمورلنك في المدينة، ليُصبحَ ابن أويس نائبا فى بغداد عن السلطان برقوق[٥]، وكانت الأخبار قد وصلت الى تيمورلنك بهجوم طقتمش

---

[١] المقريزى: السلوك, ج ٣ , ص٨٠٢ ؛ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة ,ج ١٢, ص ٤٨-٤٩.

[٢] المقريزى: السلوك، ج ٣ ، ص٨٠٣-٨٠٥ ؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ,ج ١٢، ص ٤٣-٤٥؛ ابن الصيرفي: نزهة النفوس ,ج١ ,ص٣٧٩ -٣٨١

[٣] كتبت الرسالة الأولى من جانب برقوق فى نفس يوم وصول رسالة تيمورلنك، وذلك في ٣ ربيع آخر, وقد عهد إلى كاتب السر محمد بن فضل الله العمرى بكتابتها، وقد وصف ابنُ حجر العسقلانى تلك الرسالة بأنها كلامٌ ركيك ملفَّق، غير منتظم، بينما كتب السلطان برقوق رسالته الثانية إلى تيمورلنك فيما بعد في جمادى الأول ٧٩٦هـ، وهو فى طريقه الى دمشق، وهي الرسالة التى انفرد القلقشندى بنشر نصها كاملاً في صبح الأعشى .انظر : المقريزى: السلوك, ج ٣ , ص٨٠٥-٨٠٧ ؛ ابن حجر العسقلانى : إنباء الغمر ، ج ٣ ، ص٢٦٧ ؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ,ج ١٢, ص ٤٥-٤٧؛ القلقشندى: صبح الأعشى في صناعة الانشا، أربعة عشرة جزءاً, القاهرة ١٩١٣-١٩٢٠,ج٧, ص ٣٠٨-٣١٨

[٤] المقريزى: السلوك, ج ٣ , ص٨١٣ ؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ,ج ١٢, ص٥٠؛ابن إياس : بدائع الزهور, ج١ق ٢, ص ٢٦٩.

[٥] المقريزى: السلوك, ج ٣ , ص٨١٧ ؛ ابن حجر العسقلانى : إنباء الغمر ، ج ٣ ، ص ٢٧٤.

خان القفجاق على أملاكه فآثر الانسحاب لمواجهة هذا الخطر[١]، ولكن هل كان ذلك هو السبب الوحيد الذي دفع تيمورلنك للانسحاب المفاجئ أمام القوات المملوكية ؟.

في حقيقة الأمر، كان هناك سببٌ آخر تمثَّل في أنَّ تيمورلنك أدرك أن الظروفَ غيرُ ملائمةٍ لخوض معركةٍ مكشوفة مع السلطان برقوق، في ظل خوفه من تنفيذ السلطان بايزيد وَعْده للسلطان برقوق بإرسال قوات عثمانية لمساندته فى تلك الحرب، وكان السلطان برقوق قد استقبل أثناء وجوده فى دمشق سفراء مملكتين جمعهما وإياه كُرْهُ تيمورلنك، والرغبةُ فى التخلص منه، وهما: رسول السلطان العثمانى بايزيد، ورسول طقتمش خان القبجاق، عارضين عليه تفعيل التحالف ضد تيمورلنك، ورد السلطان برقوق على كل منهما بالشكر فقط، على الرغم من أنَّ بايزيد عرض على برقوق التقاء الجيشين العثماني والمملوكي عند سيواس للتوجه لقتال تيمورلنك[٢] .

من المهم الإشارة إلي التساؤل حول عدم قبول السلطان المملوكي برقوق المساعدة العسكرية من قوى أخرى وعلى رأسها العثمانيون، التساؤل حول سبب الرفض، ومن ثم فشل المحاولة الثانية للتحالف ؟ وهو الأمر الذي فسَّرته إحدى الدراسات الحديثة برغبة السلطان برقوق في استعادة بغداد، والتصدي للمغول بمفرده، حتى ينفرد المماليك بهذا الشرف دون مشاركة عثمانية، تتيح للأخير فيما بعد التدخل في شئون بلاد الشام، خاصة وأن الظروف قد ساعدته بانسحاب تيمورلنك أيضا[٣]، ويمكن القول أيضا أن هناك سبباً آخر يتعلق بقيام السلطان بايزيد في نفس الوقت تقريباً بالبدء فى فرض الحصار العثماني على القسطنطينية راغباً في إسقاطها، وذلك في أواخر مارس ١٣٩٤ / ٧٩٦ هـ [٤]، ومن ثَّم فقد كان السلطان برقوق يدرك أن العرض العسكرى الذى قدمه

---

[١] ابن الصيرفي: نزهة النفوس ,ج١ ,ص ٣٨٧.

[٢] المقريزى: السلوك, ج ٣ , ص٨١٣؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ،ج ١٢، ص ٣٦.

[٣] ياسر مصطفى عبد الوهاب: محاولات التحالف العثماني المغولي، ص٨٠٧.

[٤] Clavijo,C.,*Emmbassy to Tamerlan,1403-1406*,tr,from the Spanish by Guy Lestrang, (London,1928),P.89;CF.also; Hidden,A.,*The Ottoman Dynasty*,P.33.

بايزيد لم يكن يأخذ الشكل الجِدِّى، وأن السلطان العثماني يريد توريطه في صِدامٍ مع تيمورلنك، لكي يتخلص من الطرفين المملوكي والمغولي معاً، ومن ثَّم يتفرغ هو لإتمام مشروعِه تجاه بيزنطة .

انطلاقا مما سبق، ظهرتْ من جديدٍ محاولاتُ التحالف العثماني المملوكي، خاصة عقب انتشار الأقاويل عن تقارب بيزنطي مغولي، فأرسل السلطان بايزيد سِفارةً وصلت إلى القاهرة في يونيو ١٣٩٧ م / رمضان ٧٩٩هـ ، مُحَمَّلةً بالهدايا، والتى من ضمنها مائتى أسيرٍ من أَسْرَى معركة نيقوبوليس، وتصادف ذلك مع وصولِ التاجر والمؤرخ البندقى إيمانويل بيلوتى Emmanuel Piloti إلى الأراضى المصرية[١]، والذي شاهد بنفسه مسيرَ هؤلاء الأسرى حتى قلعة السلطان بالقاهرة، وسمع من حديث المصريين المتواجدين بجانبه، أن السفارة العثمانية وما تحمله من هدايا تهدفُ إلى إيجاد تحالف مع السلطان برقوق للتصدي لأى هجوم محتمل من قِبَل

[١] ولد التاجر والمؤرخ إيمانويل بيلوتي في جزيرة كريت التابعة للبندقية في تلك الفترة – وذلك في عام ١٣٧١م / ٧٧٤هـ، وعندما بلغ الخامسة والعشرين من عمره، ارتحل للعمل بالتجارة في مصر وذلك في عام ١٣٩٦م / ٧٩٩هـ، وكان من المقربين من السلاطين المماليك؛ خاصة في عهد السلطان فرج بن برقوق، الذي كلفه بمهام دبلوماسية عديدة، خاصة في التفاوض مع القوى المختلفة في الغرب الأوروبي، نظراً للخبرة التي تمتع بها بيلوتي، وإجادته لأكثر من لغة، وقد زار بيلوتي بلاد الشام أكثر من مرة في خلال الخمسة والثلاثين عاماً التي قضاها في مصر، اندمج خلالها مع المصريين والمجتمع المصري، وعقب زيارة طاف خلالها عدة بلدان مثل: كريت والبندقية وفلورنسا، حيث قابل خلالها البابا أوجين الرابع EugeniusIV ، وعاد إلى مصر في عام ١٤٣٥م / ٨٣٨هـ، لنجده يُظهر اهتماماً خاصاً بجمع المعلومات العسكرية عن القوات المملوكية، وتحصينات مدينة الإسكندرية ، ليُعِدَّ بعدها تقريرًا يتناول أفضل السبل المتاحة لتجهيز حملة صليبية من أجل استرداد الأراضي المقدسة، وعندما غادر مصر للمرة الأخيرة آواخر عام ١٤٣٨م / ٨٤١هـ، وصل إلى الغرب حيث عرض هناك التقرير السابق ذكره على اعتبار أنه مشروع صليبي لاستعادة الأراضي المقدسة، ولكنه لم يلق أية استجابةٍ تذكر في الغرب الأوروبي، وذلك في عام ١٤٤١م / ٨٤٤هـ. انظر:

ياسر مصطفى عبد الوهاب: مشروع إيمانويل بيلوتى لاستعادة الأراضي المقدسة في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، بحث منشور بمجلة الدراسات الإنسانية والأدبية ، كلية الآداب – العدد الأول –جامعة كفر الشيخ عام ٢٠٠٩م. ، ص ١٠١.

تيمورلنك[١]، وحملت السفارة كتابين لكلٍّ مِن السلطان برقوق والخليفة العباسي، مذكِّراً الأول بروابطِ الصداقة، وضرورة التصدى معاً لتيمورلنك إذا ما فكَّر في العودة له بعد انتصاره في نيقوبوليس، وأنْ يمنَحَهُ لقبَ حاكمٍ على الأرض التي استولى عليها من البيزنطيين[٢]، وبناء على أوامر من السلطان برقوق، والذي كان راغباً فى كسب وُدِّ بايزيد، اعترف الخليفةُ بالسلطان العثماني حاكماً على ما استولى عليه من أراضى[٣]، وهكذا بدت المحاولة الثالثة من محاولات التحالف، وكأنها على وشك الإتمام حسْبما يشيرُ المؤرخُ جان بول روكس Jean Paul Roux [٤] ولكن هل كانت تلك المحاولة ذات أهمية في تلك المرحلة التاريخية ؟ وهل كان الطرفان يسعيان بجدية في سبيل تفعيل التحالف ؟

وإذ ما حاولنا الإجابة على ما طرح من تساؤلات، يمكن القول بأنه عقب مغادرة تيمورلنك لمدينة بغداد – كما سبق وأن ذكرنا من قبل – توجه إلى أرمينيا، ومنها إلى روسيا، وأخيرًا عاد إلى سمرقند في ١٣٩٦ م / ٧٩٩ هـ ، حيث ظل بها إلى أن قرر التوجه لغزو بلاد الهند، وذلك في بداية عام ١٣٩٨ م / ٨٠٠ هـ[٥] ورغم انشغال تيمورلنك بتلك الأعمال العسكرية، إلا أنه فاجأ الجميع بإرسال سِفارة إلى السلطان برقوق يطلب منه إطلاق سراح

---

[١] ذكر ايمانويل بيلوتى هؤلاء الأسرى بأن أغلبهم كانوا من الشباب الإيطالى والفرنسى, وأنهم عندما مروا من أمامه استطاع التحدث معهم، وزعموا أنهم تم إجبارهم على الدخول في الدين الإسلامي، ثم تتبعهم حتى وصلوا إلى قلعة السلطان. انظر:

Emmanuel Piloti, *Traite' d'Emmanuel Piloti Sur Le Passage en Terre Saint (1420)*, ed. P. H. Doop, Publication de L'Uiversite' Lovanium de L'eopoldville, (Louvain, 1958), P.229; Cf. also: David,N., *Nicopolis 1396: The Last Crusade,* (Osprey Publishing,1999), P. 76.

[٢] ابن سباط الغربى: صدق الأخبار المعروف بتاريخ ابن سباط ,ج ٢ ,تحقيق:عمر عبد السلام تدمرى ,طرابلس – لبنان ١٩٩٣م, ص ٧٥٠.راجع ايضا: سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكى,ص ٢٥٧.

[٣] ابراهيم على طرخان: مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة , القاهرة١٩٦٠ , ص ١٦٣.

[٤] Jean Paul Roux, *Tamerlan,* (Paris,1999),P. 115

[٥] ابن عربشاه :عجائب المقدور ,ص ١٦٢–١٦٣

أحد قواده العسكريين، ويُدعَى أطلمش؛ والموجود أسيرًا لدى السلطان المملوكي بالقاهرة[١]، ولكن السلطان تجاهل طلبه هذا؛ بل وأرغم أطلمش على أن يُعَبِّرَ لتيمورلنك عن سروره بالإقامة فى مصر، وأخبر تيمورلنك بأنه لن يطلق سراح أطلمش إلا إذا أطلق تيمورلنك سراح من هم عنده، وهو ما أغضب تيمورلنك بشدة[٢]، ثم حدث أنِ اندلعتِ المعاركُ فى سيواس، ونتج عنها مقتلُ حاكِمِها القاضى برهان الدين، ويرسل أهلها إلى بايزيد لإعلان رغبتهم فى تسليمهم المدينة، ليوافق بايزيد، ويرسل ابنه ليكونَ حاكمًا عليها، وذلك على الرغم من تهديدات تيمورلنك له بعدم التدخل في شئون سيواس [٣] .

واستنادًا على ما سبق، فإنه من المرجح أنه لم تكن الحاجةُ ملحةً لإتمامِ التحالف في تلك المرحلة، فإن خطورة تيمورلنك لم تكن تتعدى سِوى إطلاقه تهديدات لكلٍّ من برقوق وبايزيد نتيجة انشغاله في بلاد الهند في تلك الفترة، كذلك كان السلطان بايزيد – كعادته آنذاك – أكثر اهتماماً بتشديد الحصار على القسطنطينية في ظل المستجدات الجديدة هناك، والتي تمثلت في وجود قوات فرنسية مكلفة بالدفاع عن المدينة، ثم كانت وفاة السلطان برقوق في ٢١ يونيو ١٣٩٩م/ ١٥ شوال ٨٠١ هـ. [٤] يعني نهاية محاولة التحالف الثالثة بشكل رسمي في تلك الفترة .

من جانب أخر، وأمام الظروف الصعبة التي كانت تحيط بالقسطنطينية أدرك الإمبراطور مانويل الثاني

---

[١] أطلمش توجين قائد قلعة أونيك، وأحد أقارب تيمولنك وأهم قواته في الوقت نفسه، وفي أثناء أحد المعارك وقع فى أسر قرا يوسف التركمانى؛ زعيم قبيلة قرة قويونلو (الشاة السوداء) الذي أعتقله، ثم ما لبث أن أرسله إلى السلطان برقوق ليتم سجنه في القاهرة , وذلك فى ١٨ صفر ٧٩٨هـ . انظر : المقريزى :السلوك, ج٣، ص٨٥١.

[٢] المقريزى: السلوك, ج ٣ , ص ؛ ابن حجر العسقلانى : إنباء الغمر ، ج ١ ، ص ٥٥٢ ؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ,ج ١٢, ص ٢٧٢ .

[٣] المقريزى: السلوك, ج ٣ , ص٩٠٦ ؛ ابن عربشاه :عجائب المقدور ,ص ١٩٣ ؛ ابن حجر العسقلانى : إنباء الغمر ، ج ٤ ، ص ٩

[٤] المقريزى: السلوك, ج ٣ , ص ٩٣٧.

أنه لا يمكنه الاعتماد أبداً على قواته في مقاومة السلطان بايزيد؛ ولهذا راح يبحث عن النجدة في كل مكانٍ ولكن باءت كل محاولاته للحصول على المساعدة من الغرب الأوروبي بالفشل الذريع. (١) بل وحدث في عام ١٣٩٧م/ ٧٩٩هـ وأن سعى حنَّا السابع إلى بيعِ حقوقه في العرش البيزنطي إلى شارل السادس Charles VI ملك فرنسا، وذلك في مقابل قلعة في فرنسا، ومعاشاً مقداره خمس وعشرون ألف فلورين Florin (٢)، ولكن ملك فرنسا رفض هذا العرض لأنه لم يجد أي فائدة ستعود عليه من الحقوق الإمبراطورية، ولا شك أن هذا العرض إذا كان صحيحاً، فإنه يدل على حالة اليأس التي أصابت أباطرة أسرة باليولوجوس البيزنطية في الاحتفاظ بالقسطنطينية عاصمة الإمبراطورية. (٣)

على أية حال، استجاب الملك الفرنسي للنداءات المتكررة من جانب الإمبراطور مانويل الثاني ، وأعلن في عام ١٣٩٩م/ ٨٠١هـ عن إرسال حملة صليبية ضد العثمانيين، وذلك تحت قيادة يوحنَّا مينجر Jean De Miengre، المعروف باسم المارشال بوسيكو Boucicout (٤)، والتي قلصت إلى حدٍ ما من وطأةِ الحصار

(١) Lodge,E, *The End of the Middle Age,1273-1453,*London,1928,P.405.

(٢) Dereksen,D., *The Crescent and the Cross*,P.120.

الفلورين: قطعة نقدية ذهبية، ضربت لأول مرة في مدينة فلورنسا الإيطالية عام ١٢٥٢م /٦٥٠هـ ، وكان وزنها ثلاثة جرامات وخمسة من المائة من الجرام، وفي القرن الرابع عشر الميلادي/ الثامن الهجري حلت محل "الهابيرون" في شرق البحر المتوسط، وتعامل معها الأوروبيون بمنتهى الثقة في الأعمال التجارية، وكان الفلورين يحمل على أحد وجهيه نقش لزهرة الزنبق وهو علامة مميزة لمدينة فلورنسا، أما على الوجه الأخر فقد نقشت صورة يوحنا المعمدان وهو يرتدي قميصا من الصوف، لمزيد من التفاصيل انظر:

محمود سعيد عمران : النقود في أوروبا العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ٢٠١١م ، ص٢٥٣ ؛ كات فليت: التجارة بين أوروبا والبلدان الإسلامية في ظل الدولة العثمانية، ص ٣٣٨.

(٣) Ostrogaskey,G.,"*The Palaeologi*",P.376; Nicol,D., *The Last Centuries Of Byzantium,*P.321.

(٤)ولد المارشال بوسيكو Boucicout: في مدينة تورين Touryn عام ١٣٦٦م، اسمه الحقيقي هو جان الثاني لومينجر

العثماني، وخطرِه على القسطنطينية لفترة وجيزة، فضلاً عن وجود بعض السفن البندقية والجنوية التي ساهمت في حماية المدينة من الوقوع في أيدي العثمانيين، وبعض المعونات المالية الضئيلة التي جاءت من القوى الأوروبية في تلك الفترة. (١)

الجدير بالذكر، أن آراء المؤرخين اختلفت حول تعداد القوات المشاركة فى بوسيكو، فيذكر ليبو Lebeau أن الأسطول الفرنسى كان مُحَمَّلا بحوالى ستمائة رجل مسلح، كما كان هناك عدد كبير من النبلاء الذين أرادوا أن يكون لهم شرف المشاركة(٢) ، من جانبه ذكر باركر Barker أن عدد النبلاء كان حوالى أربعمائةٍ، حيث تولوا قيادة الفرق العسكرية، وحوالى أربعمائةٍ من الجنود، وعددٍ من رُماةِ السهام، وسفينتين حربيتين كبيرتين، وأربعِ سفنٍ صغيرةٍ، وأنَّ التعداد الإجمالي بلغ حوالى ألف ومائتى فارس(٣)، بينما يشير نيقول Nicol أنَّ بوسيكو ومساعده الضابط جان مَن شاتوموراند Jean de Chateaumorand كان معهم ما يقرب

=

Jean II LeMeinger،ينتمي لأسرة عريقة ونال ثقة الملك شارل السادس الذي عهد إلي لويس الثاني دوق البوربون برعايته ،وشارك مع الأخير في حملات ضد المتمردين علي الملك الفرنسي، وفي حملة لويس علي المهدية عام ١٣٩٠م، وحصل علي لقب مارشال، واشترك في معركة نيكوبوليس عام ١٣٩٦م، واشتهر بوسيكو بحملته علي الإسكندرية وسواحل بلاد الشام في عام ١٤٠٣م، وقد توفي بوسيكو في عام ١٤٢١م. لمزيد من التفاصيل انظر :ياسرمصطفي عبدالوهاب:حملة المارشال الفرنسي بوسيكو علي الإسكندرية وسواحل بلاد الشام ١٤٠٣م/٨٠٦هـ ،منشور في مؤتمر اتحاد المؤرخين العرب حصاد ٢١، القاهرة، ٢٠١٣م، ص٢٣٠-٢٣٣.

(١) أميرة محمد نافع : العثمانيون وأوروبا (٧٥٣-٨٠٥ هـ/١٣٥٢-١٤٠٢م)، ط١، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة،٢٠١٤م، ص ٧٢٠.

(2)Lebeau, *Historie du Bas-Empire,* p.29

(3) Barker,J*., Manuel II Palaeologues* , p , 161

من ٢٢٠٠ مقاتل، ستمائةٍ من المقاتلين المسلحين ومثلهم من الفرسان وحوالى ألف من الرماة، ومعهم العديد من السفن والمراكب الشراعية.(١)

خرج بوسيكو بقواته فى ٢٦ يونيه ١٣٩٩م / ٨٠١هـ من ميناء إينج مورت Aigues Mort الفرنسى، ولقد واجه بوسيكو وأسطوله العديد من العقبات، حيث انتَظَرَتْه حوالى سبْعَ عشْرةَ سفينةٍ حربيَّةٍ تابعةٍ للسلطان العثماني، عند معبر غالبيولى Gallipoli ولكن ما أن شاهده الجنود العثمانيون مقبلا نحوهم حتى تخلوا عن مواقعهم، ثم سرعان ما وصل إليه أكبر سفينتين للأسطول العثماني في المنطقة، سارت فى طريقهما لتوجه ضربةً عنيفةً إليهم، ولكن على الرغم مِن قلة عَتاده إلا أنَّه استطاع أن يردَّ هجومَهم ويَجبُرَهُم على الفِرار بعد أن قتل الكثيرَ ممَّنْ كان على متنهما، ليتجه بعد ذلك إلى ميناء تينيدون Tenedon (٢) ، وفى اليوم التالى ، وصلت إلى القسطنطينية قواربُ على متنها عددٌ من الجنود قادمة من البندقية، وكذلك قاربٌ شراعيٌّ من مدينةِ جنوه لسيِّدٍ يُدْعَى دى ميتيلين MetelineDe، إلى جانب العديد ممن تم إرسالهم أيضا لنجدةِ القسطنطينية. (٣)

بمجرد وصول بوسيكو وقواته إلى العاصمة البيزنطية، حتى كان فى استقباله كلٌّ مِن الإمبراطور البيزنطى مانويل الثانى، وسائر سكان القسطنطينية بالهتافات المرحِّبة بذلك القائد، معتبرين إياه مُنقذًا لمدينتهم، وسرعان ما

(1) Nicol,D., *Last* , p , 308

(٢) هو ميناء طرواده Troia ، تلك المدينة القديمة والتي تقع فى منطقه آسيا الصغرى، وهى مدينة بحرية غنيةٌ ، ازدهرت فى الألف الثالث قبل الميلاد وقد اشتُهرت بقصة حصان طرواده الخشبى ، انظر:

نهى حافظ : الإمبراطور البيزنطي مانويل الثانى باليولوجس وسياسته الخارجية (١٣٩١-١٤٢٥) ، رسالة ماجستير لم تنشر بعد، كلية الآداب جامعه سوهاج ، ٢٠٠٨ ، صـ١٣٩

(3)Brehier,L.,*Life and Death*,p.332.

لقبوه بالقائد العظيم الكونسيال The Consil[١] ، وفى غضون بضعة أسابيع تخلصتْ نواحي العاصمة وضواحيها من الوجود العثماني، وهكذا نجحت الحملةُ فى مطاردةِ وتهجير الجنود العثمانيين من معاقلهم المنتشرة على مَقرُبةٍ من مدينة القسطنطينية، التى ظلت لعدةِ أعوامٍ ماضيةٍ محاصَرة ومهددة من العثمانيين، وظلت نيقوميديا Nicomedia[٢] هي المدينة الوحيدة التى لم تتعرض لهجمات شديدة من العثمانيين، إلا أن ضواحيها قد لَحِقَ بها الدمارُ بصورةٍ مؤلمةٍ.[٣]

الجدير بالذكر، أنه وعلى الرغم من النجاحات البحرية التي حققتها حملةُ المارشال بوسيكو على البحرية العثمانية والاستيلاء على بعض القلاع وحماية المنطقة من الهجمات العثمانية لبعض الوقت، فإن تلك الحملة لم تكن هي التي تغير الموقف جذرياً؛ وذلك لأكثر من سبب، منها: قلة أعدادها، فهي لم ترقَ إلى مستوى الحملات الصليبية الضخمة، كما أن تفوق القوات العثمانية في الحروب البرية، جعلت من الصعب إحرازَ نجاحاتٍ ضخمةٍ والسيطرة على المدن والحصون المهمة، كما كانت قوات بوسيكو تتألف معظمها من المرتزقة وليس المتطوعين

---

[١] لقب الكونسيال The Consil يُمنح للقائد العام للقوات المسلحة، ويحمل لواء المَلك فى حفلة تتويجيه، ويتولى قيادة الجيوش فى المعركة فى حالة غياب الملك وأثناء الحملات، وهو أيضا قاضى عسكرى، ويفصل فى قضايا الفرسان والطبقة الوسطى ويتولى النظر فى شئون القوات المرتزقة ، أنظر :

صلاح محمد ضبيع : العلاقات السياسية بين العثمانين وآل باليولوجوس ، ص ١٨٠ (هامش ٣)

[٢] نيقوميديا Nicomedia مدينة قديمة فى الأناضول وتسمى حاليا أزميد، تأسست عام ٧١٢ ق.م كمستعمرة ميغارية وعرفت باسم استاكوس، وذلك بعد أن دمرها ليسيماخوس، أعاد نيقوميديس الأول بنائها عام ٢٦٤ق.م باسم نيقوميديا، وقد جعلها دقلديانوس مركزًا لحكمه على الجانب الشرقى من الإمبراطورية الرومانية .انظر:

Alxander P.Kazhdan, *The Oxford Dictionary of Byzantium*,Volume1-2-3,New york1991,p,975

[٣] Doucas,M., *Decline And Fall Of Byzantium to The Ottoman Turks*, p,93.

الذين يملؤهم الحماس الديني، وإنما كل ما يعنيهم ما سوف يحصلون عليه من العدو وما سوف يدفعه لهم بوسيكو، كما كان هناك نقصٌ في المؤن والأموال بشكل كبير، ولم يعد بوسيكو قادراً على دفع رواتبهم، كما أن مسألة الحصول على غنائم ضخمة من العثمانيين مسألة في غاية الصعوبة.(١)

رغم تلك النجاحات التي حققها بوسيكو وقواته لبيزنطة، إلا أنها كانت بمثابة إسعافات أولية، وظل الحصار العثماني للقسطنطينية مستمرًا، وزاد الأمرُ سوءًا داخل المدينة، عندما نجح العثمانيون آنذاك في منع دخول القمح إلى المدينة، الأمر الذي ترتب عليه انتشار المجاعة بين سكانها، وموت أعداد كبيرة بينهم(٢) ويعبر ابن عربشاه عن ذلك بقوله: " وابن عثمان كان بالحصار قد أنهكها، وأباد قراها وضواحيها وأهلكها، وضيَّق على أهلها". (٣) وأضاف المؤرخ ميخائيل دوكاس بقوله: "إن شعب القسطنطينية قد عانى من مجاعةٍ شديدة، لدرجة أن مكيال القمح بِيع بأكثر من عشرين قطعة من الذهب، ولكن أين يمكن العثور على عملة ذهبية واحدة؟ فضلاً عن ندرة السلع الأخرى، وبسبب تلك الظروف فقد قرر السكان عدم الولاء والخيانة والغدر لبلدهم، الأمر الذي جعل الإمبراطور مانويل يتقرب للرب في كل ساعة من كل يوم وهو يصلي طالباً بالدعاء، قائلا: "لا تدعني أيها المسيح، يارب، لا تدع أبدًا أن يُسمع بين الأمم المسيحية التي لا تُعد ولا تُحصَى التي كانت في أيام الإمبراطور مانويل والمدينة المقدسة أنه تم تسليم الأوعية الثمينة في الداخل إلي الوثنيين كارهى المسيح "، متمنيًا عدم استيلاء بايزيد وقواته على المدينة في عهده "(٤)

---

(1)Doucas,M.,*Decline And Fall Of Byzantium to The Ottoman Turks*, p,85

(2)Alix,M.,*Precis De L'Histoire De L'Empire Ottoman*,Tom.I,P.27;Gautier,P.,Un *Recit Indit Du Siege De Consantinole,*P.107.

(٣) ابن عربشاه: عجائب المقدور في نوائب تيمور،ص٣٣٣.

Gregory E.T., *A History of Byzantium,* Blackwell, 2005, p. 321

(4)Doukas,M.,*Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman* Turks,P.86.

في الوقت نفسه، يبدو أن الخطر العثماني قد أحدث تقاربًا شديدًا في المصالح بين بيزنطة وجنوة ، ففي ذلك الوقت حاصر العثمانيون مستعمرةَ غلطية Galata –شمال القرن الذهبي الذي يفصل بينها وبين القسطنطينية– والخاضعة لجنوة، وعجزت الأخيرة على التصدي للعثمانيين، في الوقت الذي أدرك فيه الإمبراطور مانويل الثانى أنه مع مرور الوقت سوف تسقط عاصمتُه، مع فشله وبقوات بوسيكو في إجبار السلطان العثماني في فك حصاره للعاصمة الإمبراطورية، وطبقا لما ذَكَرَهُ المؤرخُ سباندوينس Spandounes أنهما لم يجدا معًا قوةً مؤثرةً يستنجدون بها، غير قوة المغول الصاعدة تحت قيادة تيمولنك[١] .

بالفعل سعى الإمبراطور مانويل للتحالف مع القوة الجديدة المناهضة للسلطان العثماني في الشرق، والممثلة في قوة تيمورلنك، خاصةً بعد أن أخذ الأخير في التوسع على حساب القوى الإسلامية المجاورة[٢]، فاستغل وجود فرانسوا ساندرون – سفير الملك الفرنسي – في القسطنطينية آنذاك، وقرر إرسالَه على رأس سفارةٍ إلى سمرقند حيث يوجد تيمورلنك، وعندما التقتِ السفارةُ بالعاهل المغولي أخبروه بالخطر العثماني، وما تتعرض له القسطنطينية، وغلطية من معاناةٍ على يد بايزيد، محرضين إياه على الأخير، وعرض عليه التحالف

=

وعن ذلك يشير أحد المؤرخين الحديثين بقوله "... إنه رغم المقاومة ضد العثمانيين، إلا أن سكان القسطنطينية وصلوا إلى حالة من اليأس، نتيجة إحساسهم بالجوع، وبدأت تسري شائعات بالتواطؤ مع الترك من قبل القيادة، حتى رجال الدين، على الرغم من عدم وجود دليل على ذلك، في الوقت الذي كان فيه بايزيد على ثقة بأنه سيستولي على المدينة" انظر:

Gregory E.T., *A History of Byzantium*, Blackwell, 2005, p. 321.

(١) Spandounes, *The Origin of the Ottoman Emperors*,Trans.by,Nicol,D.,Cambride,1997,p.23 .

(٢) كان السلطان العثماني بايزيد قد قام بطرد بعض أمراء آسيا الصغرى من مراكزهم، فلجأوا إلى تيمورلنك وحرضوه على محاربة بايزيد، انظر:

Caesaris, S.R.E., Baronii, *Annales Ecclesiastici de nuo et accurate excusi*, Tomus XV, 1334-1355, Paris,1880, p. 578

ضد العثمانيين موضحًا أنهم أصبحوا الخطر الذي يهدد الجميع وليس بيزنطة وشرق أوروبا فحسب، وذلك في مقابل دعمه بالأموال والسفن، وأنهم سوف يقطعون الطريق على العثمانيين من أوروبا إلي الأناضول[١] ، بل وقد شمل العرض البيزنطي أنْ تدفع بيزنطة لتيمولنك قيمة الجزية التي تدفعها إلى السلطان بايزيد [٢] .

على أيه حال، من الواضح أن تيمورلنك رحب بالعرض البيزنطي – المساند من الغرب الأوروبي الممثل في جنوة– حيث توقع مساندة الأسطول المرابط في طرابيزون Trebizond ،وأيضا يستطيع إغلاق مضيق الدردانيل، ومنع قدوم أي إمدادات لعدوه بايزيد من الساحل الأوروبي إلى الساحل الآسيوي[٣]، وأيضا كما أشارت وثائق دينيسDennis سوف يستطيع تقوية قواته عسكريًا دون أن يكلفَه ذلك أيَّةَ أموالٍ[٤]، والمقصود بها تلك الجزية السنوية التي قررت بيزنطة تسددها لتيمورلنك بدلًا من السلطان بايزيد.

وعلى الرغم من أن المؤرخ جوزيف داهموس يُرجِّح أن تيمورلنك لم يُبدى اهتمامًا بالعرض البيزنطي للتحالف[٥]؛ إلا أنه من جانبنا يمكن القول أن تيمورلنك رحب بالعرض البيزنطي، ووافق عليه؛ لأنه أدرك أن المماليك وسلطانَهم برقوق اعتبروه عدوًا لهم، ومِن ثَّم أصبح بذلك بين عدوين هما المماليك والعثمانيون، فأراد بالتحالف المرتقب استغلال الجانب البيزنطي كعنصرِ ضغطٍ على السلطان العثماني عند الصِدام المرتقب معه، ولابد أنه عَلِمَ بمحاولاتِ عقدِ تحالفٍ مملوكيٍّ عثماني ضده ، وبالتالي سوف يصبح بين مطرقة العثمانيين وسندان

---

(1)Andriopoulou Stavroula, "*Diplomatic communication between Byzantium and the West under the late Palaiologi (1354-1453)*", PhD. Degree in the University of Birmingham, 2010

(2) Alexandrescu, *Le campagne*, p. 51

(3) Alexandrescu, *Le campagne,* p. 52.

(4) Dennis, *Three reports,* p. 245, Doc (1).

(٥) جوزيف داهموس: سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى، ترجمة/ محمد فتحي الشاعر، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د.ت،. ص ١٨٨.

المماليك في حالة نجاح تلك المحاولات، وأخيرًا إن مجرد ظهور تقارب بيزنطي مغولي ضد العثمانيين كان يعني تطورًا مفاجئًا وخطيرًا في الصراع الدائر بين بيزنطة والقوة الموجودة في الشرق في تلك الفترة.

بعد كل المحاولات الفاشلة لفك الحصار عن القسطنطينية، أدرك البيزنطيون وبوسيكو أن الحل يكمُنُ في ذهاب الإمبراطور البيزنطي بنفسه إلى بلاط شارل السادس ملك فرنسا ولقاء ملوك وحكام أوروبا الآخرين، للاستغاثة بهم لنجدة عاصمته، والتخلص من الخطر العثماني(١)، وأدرك الإمبراطور مانويل أنه قبيل مغادرته لتلك الرحلة المرتقبة يجب عليه أن يولِّيَ أحدَ المقربين لإدارة شؤون الإمبراطورية أثناء غيابه، ورغم أن الجميع يعلم أن العلاقة بين مانويل وحنَّا السابع كانت غير جيدة، إلا أن بوسيكو قرر عقد المصالحة بين الطرفين المتنازعين، وبالفعل نجح بوسيكو في عقد اجتماع ثلاثي بينه وبينهما، حيث توصل إلى اتفاقية بين مانويل الثاني وحنَّا السابع، تضمنت أن يتولى حنَّا السابع أمور القسطنطينية أثناء غياب الإمبراطور مانويل، كما تعهد مانويل بأنه سوف يتنازل عن مدينة سالونيك إلى حنَّا عقبَ عودته من رِحلتِه. تولي حنا السابع مسئولية العرش البيزنطي أثناء غياب الإمبراطور مانويل، وعندما اشترط حنَّا السابع أن يقوم بوسيكو بترك بعض القوات الفرنسية للدفاع عن القسطنطينية، وافق الأخير على هذا المطلب، وتم هذا الإتفاق في ٤ ديسمبر سنة ١٣٩٩م/ ٨٠١هـ.(٢)

بالفعل اختار بوسيكو فصيلةً عسكريةً من قواته تتكون من مائةِ رجلٍ مسلحٍ، ومائةٍ آخرين مساعدين لهم، وعدد آخر من رُماة السهام، وتولى قيادتهم أحدُ قادتِه المميزين وهو يوحنا شاتو موراند Jean de Chateaumorand، والجدير بالذكر أن بوسيكو قبل مغادرته القسطنطينية ترك لهذه القوة المؤن اللازمة لسد حاجتها طوال وجودها في القسطنطينية، كما دفع رواتبها عن المدة التي ستقضيها هناك، وساهم أيضاً كلٌّ من

)1(Barker, J.W., *Manuel II Palaeologus,* P.162.

)2(Doukas,M., *Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks*,P.282.No.86-87;CF.also: Clavigo, *Embassy to Tamerlane*,P.51.

انظر أيضا: زبيدة عطا: بلاد الترك في العصور الوسطي، ص١٧٦.

البنادقة والجنوية بأربع سفن للدفاع عن القسطنطينية ومعاونة القوات الفرنسية. [١]

غادر الإمبراطور مانويل القسطنطينية متوجها نحو الغرب الأوروبي وذلك في ١٠ ديسمبر عام ١٣٩٩م / ٨٠١هـ ، يرافقه بوسيكو وعدد من كبار رجال الإمبراطورية، وهناك اختلاف بين المؤرخين حول جنسية السفن التي أقلت مانويل في رحلته، ففي الوقت الذي يذكر فيه المؤرخ دوكاس أنه سافر على إحدى السفن البندقية[٢] نجد المؤرخ لويس برهيير Louis Brehier يشير إلي أن مانويل ذهب على أسطول بوسيكو[٣]، بينما يرجِّح إلكسندر لويس Alixander Louis أنه أبحر على سفن القسطنطينية [٤].

أيا كان الأمر، فقد رافق الإمبراطور مانويل أيضا في رحلته تلك زوجتُه هيلينا دراجاش وولديه الصغيرين يوحنَّا وثيودور[٥]، وحينما وصلت السفن إلى أول مرسَى لتلك الرحلة، ميناء مودون Modon[٦] في المورة، تركهم

---

(١) Barker, J.W.,*Manuel II Palaeologus,*P.200.

(٢) Doukas,M.,*Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks,*P.282.No.82.

(٣) Brehier,L.,*Vie et Mort de Byzance,*P.471.

(٤) Alixander,.L.,*Precis De L'Histoire De L'Empire Ottoman,*Tom. I,P. 27.

(٥) الإمبراطورة هيلينا دراجاش Helena Daragas: هي ابنة الأمير الصربي قسطنطين دراجاش وحفيدة الملك الصربي ستيفان الثالث ديانسكي، قُتل أبوها في معركة روفين١٣٩٥م أثناء قتاله مع السلطان بايزيد الثاني بصفته سيده (تابع) ضد ميرسيا الأول حاكم والاشيا، تزوجت هيلينا من مانويل الثاني باليولوجوس في عام١٣٩٢م، وقد اشتهرت هيلينا بجمالها وتقواها وحكمتها وعدالتها، وتوفت هيلينا دراجاش في القسطنطينية ٢٣ مارس عام ١٤٥٠م. انظر:
Sullivan,A.,*Byzantium in Eastern European Visual Culture in the Late Middle Ages*,Boston, 2020,P81;Philippids,M.,*Constantine XI Dragas Palaeologus(1404-1453):The Last Emperor of Byzantium*,New York,2019,P.239.

(٦) مودون Modon أو ميثون Methone: مدينة تقع في أقصى جنوب غرب البيلوبونيز، كانت محطةً تجاريةً ما بين البحر الإيجى وإيطاليا، انظر:

هناك في حماية أخيه ثيودور. [١] وتشير الروايات أن ثيودور أخبر الإمبراطور مانويل أن رحلته هذه لن يجني منها سوي الفشل، حيث إن والدهم الإمبراطور يوحنا الخامس باليولوجوس قد قام بنفس هذه الرحلة من قبل بحثًا عن المساعدة، ولم ينل سوي الفشل وخيبة الأمل، وكذلك وضَّح له مدي المخاطرة عندما يترك الإمبراطورية في يد شاب صغير بدون خبرةٍ، وستكون أفعاله متفقةً مع ما يريده، إلا أن مانويل لم يعطِ أي اهتمام لتحذيرات أخيه التي تعتبر بمثابة جرس إنذار، لكنها على العكس عجَّلت من خُطاه للرحيل[٢]، ومن الملاحظ أنه على الرغم من تصالح الإمبراطور مانويل مع حنَّا السابع، فإنه لم يكن يثق فيه بدرجةٍ كبيرة، ولهذا شَعر أن عائلته سوف تكون آمنة في مكان آخر بعيداً عن القسطنطينية.

من خلال ما سبق، وفي محاولة لتقييم أحداث تلك الفترة بين عامي(١٣٩٣-١٣٩٩م/ ٧٩٥ – ٨٠٢هـ) والتي تميزت بما عرف بحصار القسطنطينية واشتداد الصراع في المنطقة حول بيزنطة، وتحديدًا بين القوى في المشرق الإسلامي، دارت العديد من التحالفات ومحاولات التقارب بين القوى المختلفة سواء من جانب بيزنطة أو من جانب العثمانيين أو المماليك أو المغول، وفي محاولةٍ لإقامة تحالفٍ عثمانيٍّ مملوكيٍّ مُوَجَّه ضد المغول، لم تنته بالنجاح، والتي من المرجح أن وفاة السلطان برقوق كانت نقطة فاصلة في هذا الأمر، كذلك من المرجح أن تلك القوة التي قادها المارشال الفرنسي بوسيكو؛ والتي حافظت على القسطنطينية من السقوط، لم تكن كافيةً لاستمرار

=

حاتم عبد الرحمن الطحاوي: بيزنطة والمدن الإيطالية (١٠٨١-١٢٠٤م)، ص١٤٢، هامش(٢).

(١) Doukas,M.,*Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks*,P. 87. Ostrogaskey,G.," *The Palalogogi*",P.377.

(٢) Lebeau.,*Histoire du Bas-Empire*,paris,1885,P.37;Gibbons,H.,The *Foundation of the Ottoman Empire*,P.240.

صمود عاصمة الإمبراطورية، مما جعل الإمبراطور مانويل يعلن أنه على استعدادٍ لأنْ يُسلِّم عاصمتَه للقائد المغولي تيمورلنك .

كذلك توصلت الدراسة إلى أنَّه عندما حاول السلطان بايزيد إحياء الصراع القديم على العرش البيزنطي، رغبةً منه في الاستيلاء على عاصمة الإمبراطورية الصامدة أمام قواته لم يتم الأمر في النهاية، بسبب استماتة مانويل برفض تنفيذ أوامر السلطان بترك الحكم، كذلك يبدو أيضا أن حنَّا السابع لم يستجب في النهاية لمخطط السلطان العثماني، ووسط تشكك أهالي القسطنطينية لنوايا السلطان فشل مخطط بايزيد لإحياء الصراع القديم على العرش البيزنطي.

وعلى الرغم من أن البعض تشكك في موقف تيمورلنك من العرض البيزنطي بإقامة تحالف بيزنطي مغولي موجه ضد العثمانيين، إلا أنه من جانبنا يمكن القول أن تيمورلنك رحَّبَ بالعرض البيزنطي ووافق عليه؛ لأنه أدرك أن المماليك وسلطانَهم برقوق اعتبروه عدوًا لهم، ومن ثَمَّ أصبح بذلك بين عدوين هما المماليك والعثمانيون، فأراد بالتحالف المرتقب استغلال الجانب البيزنطي كعنصر ضغط على السلطان العثماني عند الصِدام المرتقب معه، ولابد أنه علم بمحاولات عقد تحالف مملوكي عثماني ضده ، وبالتالي سوف يصبح بين مطرقة العثمانيين وسندان المماليك في حالة نجاح تلك المحاولات، وأخيرًا: إن مجرد ظهور تقارب بيزنطي مغولي ضد العثمانيين كان يعني تطورًا مفاجئًا وخطيرًا في الصراع الدائر بين بيزنطة والقوة الموجودة في الشرق في تلك الفترة.